اللغة الكولونيالية وأزمة الوعي الشقي عند عاموس عوز

أ. عبد الرحمن وغليس♥
ج. الجزائر

تاريخ الإرسال: 2018.03.15 تاريخ القبول: 2018.04.08

"لم يقتصر الأمر على إغفال دور الفلسطينيين في إسرائيل عام 1948، بل إن القضيّة برمّتها وما تشتمل عليه من أحداثٍ تاريخيّة صُوِّرتْ ورُويتْ بطريقة مغايرة تماماً. وأضحتْ الرواية الصهيونية لأحداث 1948 وإنكار أيّ معاناة لحقتْ بالفلسطينيين أساسًا لفكرة إسرائيل، واستمرّ ذلك حتّى التسعينيّات حين ظهرتْ محاولاتٌ لتفنيد هذه الرؤية"

إيلان بابيه: فكرة إسرائيل

ملخص: تحاول هذه الدراسة اختبار مدى صمود مقولات السردية الصهيونية التي تبنّاها الروائي «عاموس عوز» في ادّعائه بشأن شرعية الدولة اليهودية وممارساتها الوحشية اتّجاه الفلسطينيين أمام أدوات التحليل ما بعد الكولونيالي وتفكيك الخطاب التي تؤطر دراستنا.

تكمن المفارقة في أعمال عوز أنه عاجز عن التوفيق بين المواقف الصريحة ونقيضها؛ فهو من جهة يكتب وفق منظور استشراقي يقوم على اختزال الآخر وتقزيمه وإضعاف صوته(وجوده) لتسهيل الهيمنة عليه، ومن جهة ثانية ينتقد

♥ oughlici@yahoo.fr

ممارسات السياسة الصهيونية ويستنكر تعنّتها، ولا يُخفي تضامنه أحيانا مع الضحايا والمقهورين الفلسطينيين.

تخلص الدّراسة إلى أن عوز سقط ضحية الوعي الشقي في الفكرين الغربي واليهودي فمعاناة اليهود واضطهادهم داخل أوروبا جعله يناصر قضية ظالمة لا تنسجم مع قناعاته ومبادئه النضالية.

الكلمات المفتاحية: السردية الصهيونية، الاستشراق، الكولونيالية، الآخر الوعي الشقي.

Abstract: This study attempts to test the steadfastness of the Zionist narratives, adopted by the novelist Amos Oz in his claim to the legitimacy of the Jewish state, its brutal practices towards the Palestinians in the face of the tools of postcolonial analysis, and the dismantling of the discourse that underlies our study.

The paradox in Oz's work is that he is incapable of reconciling explicit positions and contradictions; on the one hand, he writes according to an orientalist perspective based on reducing and diminishing the other, weakening his voice to facilitate his hegemony. On the other hand, he criticizes the practices of the Zionist policy by denouncing its intransigence, and sometimes showing his sympathy towards the oppressed Palestinian victims.

The study concluded that Oz had fallen victim to the villain consciousness in Western and Jewish thought. The suffering of the Jews and their persecution in Europe made him advocate an unjust cause that was incompatible with his convictions and principles of struggle.

تمهيد: يقول إدوارد سعيد في آخر كتابٍ أرسله إلى المطبعة قبل أن يغيّبه الموت عن السجالات الدائرة في نهاية القرن الماضي؛ وهو كتابٌ نقديٌّ، شفّافٌ وملتزِمٌ إلى أبعد الحدود بالقضايا الإنسانية والحق في الديمقراطية للجميع دون استثناء، ويتعلّق الأمر بكتاب: **الأنسنيّة والنقد الديمقراطي**. يقول في صفحاته الأخيرة؛ ملخّصا مسيرته الفكرية والنقدية المثيرة، ومعبّرا عن موقفه بصراحة من

قضيته والنضال من أجل القيم الإنسانية الكبرى: "إن دور المثقّف هو أن يقدّم سردياتٍ بديلةٍ ومنظوراتٍ للتاريخ مغايرة لتلك التي يقدّمها مُقاتلون نيابةً عن الذاكرة الرسمية وعن الهويّة والرسالة القَوميَّتيْن. منذ نيتشه على الأقل، يُنظَرَ إلى كتابة التاريخ وتراكُمات الذاكرة، بطرقٍ مختلفة، على أنّها المرتكزات الأساسية للسلطة؛ فهي تقود استراتيجياتِها وتَرسُم الخطوط البيانية لِتقدُّمِها".[1]

نفهم من كلام إدوارد سعيد حجم المسؤولية التاريخية التي تضطلع بها فئة صغيرةٌ وحسّاسةٌ في المجتمعات التي تعيش فيها، وتعلن لها الولاء، وتدافع عن هويتها ومقوّماتها التي تضمن لها الصمود والاستمرار أمام التحدّيات المهدِّدة لتماسكها، والاختلاقات التي تحرِّف التاريخ وتشوِّهه، وتنتصر للنّعرات القومية والأساطير المؤسِّسة للدول الحديثة والإمبراطوريات العظمى.

نحاول في هذه الورقة البحثية التعرّف على الذات في منظور الآخر من خلال النصوص الأدبية والأنماط السردية التي تعكس حيثيات الصراع الفلسطيني/ الإسرائيلي وكيف تعمل السرديات المتسيِّدة (من السيادة) على تنمية الروح القومية، وتبرير الهيمنة على المقهورين والمهمّشين، وتنميطهم من أجل مَوْضَعَتهم والتحكّم فيهم بسهولة. لهذا وَقَع اختيارنا على نص سردي للكاتب الصهيوني عاموس عوز ونقصد به: رواية **"قصة عن الحب والظلام"** التي صدرت لأول مرة باللغة العبرية سنة 2002، ونقلها إلى العربية المترجم الفلسطيني "محمد زيدان" سنة 2014 عن منشورات الجمل.

قبل البدء نطرح السؤال الآتي: كيف صوّر الأدب العبري الآخر/ الفلسطيني منذ بداية الصراع على الأرض والحق في التمثيل؟ وهل يخرج ما كتبه عاموس عوز في هذه الرواية عن دائرة الاستشراق؟

إن الوعي بالكتابة وأهميّة السرد يدخلان في خدمة الأفكار الايديولوجية والتطلّعات القومية وترجيح كفّة الطرف الذي يستطيع إيصال صوته، وإقناع

الآخرين بصحّة روايته. وبما أن الأمم مروياتٌ وسرْدياتٌ كما يرى هومي بابا Homi Bhabha فإن السرد يغدو الوسيلة الفعّالة التي تتسابق إليها الأطراف المتصارعة من أجل الحق في التمثيل وتغليب الرواية الرسمية التي يفرضها الطرف المنتصِر. وفي هذه الحالة لا تخلو الروايات الرسمية من السعي إلى السيطرة على الآخرين، والهيمنة على المقهورين والمستضعفين، واختزال كينونتهم وتواريخهم عن طريق الادّعاءات الباطلة والأكاذيب وتشويه صورة الآخر وشيطنته.

*****مواطن الحداثة وإعادة إنتاج الاستشراق:** نحاول في هذه الورقة البحثية تفكيك الخطاب السردي الذي يتوسّله عوز من أجل لا نصرة قضيّته والتشبّث برأيه فحسب وإنّما معرفة كيف يساهم مثقّفٌ وناشط سياسي مثله –له سطوةٌ كبيرة على الرأي العام في إسرائيل–على **شرْعَنَة** فكرة إسرائيل، ودعم الأسطورة المؤسِّسة للرواية الصهيونية عن طريق تنْقيحها وإثرائها، وتوجيه النقد لها إنْ اقتضتْ الضرورة.

تعتبر الصهيونية خطابا استشراقيا عمل على اخْتلاق الآخر الفلسطيني وتمثيله بوصفه عاجزاً ودونياً وبربرياً إن لم نقلْ إرهابياً، ونحن هنا إزّاء الطرح المعروف لكلمة "خطاب" Discours الذي يستخدمه إدوارد سعيد حين يناقش موضوع الاستشراق سنة 1978. نفس الطرح يتبنّاه المؤرخ الإسرائيلي المثير للجدل إيلان بابيه Ilan Pappe في كتابه: **"فكرة إسرائيل" THE IDEA OF ISRAEL** الصادر في 2014 والذي اختار له عنوانا فرعيا له دلالة عميقة بما يريد قوله وهو؛ تاريخ السلطة والمعرفة.

لا يرى بابيه ضيْرا في تعميم حكمه على كل خطاب (سواء كان خطابا أدبيا أم علميا أم سياسيا أم تاريخيا) يطال الآخر الفلسطيني قبل وبعد تأسيس دولة إسرائيل

عام 1948 على الأراضي المغصوبة من الشعب الفلسطيني على أنّه جزءٌ لا يتجزّأ من الخطاب الاستشراقي الغربي ولا يختلف عنه في شيء.

فبدعم من الآلة الاستعمارية الأوروبية والأمريكية والطموح إلى تكوين الإمبراطوريات، وإخضاع الشعوب الأخرى يستمدُ الخطاب الاستشراقي الإسرائيلي قوّته ومشروعيته، ويتغذّى على مسلّماته وتعميماته التي تسعى إلى معرفة الآخر وموضَعَتِه والسيطرة عليه بسهولة.

لم تعد الصهيونية مجرد إيديولوجيا قومية تسعى لتنفيذ أجندتها المسطّرة في الشرق الأوسط بإحلال الشعب اليهودي مكان الشعب الفلسطيني باغتصاب أرضه وطرده دون رجعة، وإنّما يُنظر إلى الصهيونية على أنها امتدادٌ لمشاريع إمبريالية أوروبية بحكم سيطرتها الفعلية على الأرض الموعودة لليهود.

على هذا الأساس تستَحِيل الصهيونية كما يحاجج بابيه من إيديولوجيا قومية إلى خطاب استشراقي يكتسب شرعيته ومنظومته من المركزية الغربية في رؤيتها إلى العالم الذي يقع خارج أوروبا، ككيان يقع خارج التاريخ بتعبير هيغل. ويتحدّد وجوده على أساس الفكر المانوي/ الثنائي الذي صاغه الغرب لآخَرِهِ المختلف عنه جذرياً.

إن السردية الصهيونية تسير على خطى مواضعات المركزية الغربية التي عملَتْ على الفصل الابستمولوجي والأنطولوجي التام بين ما هو غربيٌّ وما هو شرقيٌّ والإصرار على خلق مسافة كافية تضمن لها السيطرة والتحكّم؛ فالغرب صُوِّر على أنّه متطوِّرٌ وعقلانيٌ وحداثيٌ في حين صُوِّر الشرق على النقيض، أي أنه متخلِّفٌ وعاطفي(روحيٌّ) وأصوليٌّ إن لم نقل رجعيٌّ. بل لا نجانب الصواب إذا تبنَّيْنا في هذا السياق مقولة روديارد كيبلنغ الشهيرة " **الشرق شرقٌ والغرب غربٌ ولن يلتقيا أبدا** "

فالشرق في الأخير، ببساطة عاجزٌ على استلهام روح الحداثة الأوروبية، ولذلك لا نستغرب ما يذهب إليه يوسف غورني باعتباره أن الصهيونية: " هي مشــروعٌ من مشاريع التحديث القليلة التي نجحَ تطبيقها، إن لم تكن المشروع الوحيد، وذلــك بالرغم من كثرة القوى المضادّة التي رفضتْ التنوير ووقفتْ عائقــا أمــام التقــدّم الإنساني".[2] يغدو الفلسطيني كما يشير إلى ذلك غورني المعادل الموضوعي لكل ما ينطبق على خمول الشرقي، ومعارضته المطلقة لإنجازات الحداثة.

نفس الأفكار نجدها عند البريطانيين باعتبارهم ممثّلي التنوير الأوروبي في الهند ولكن المفارقة سرعان ما تفضح الازدواجية في التطبيق وعدم الســماح للشــعوب الأخرى في مقاسمة إرثها الحداثي والاستفادة من منجزاتها التنويرية. ويرى ديبيش شاكرابرتي أنه: "في الواقع تتمثّل إحدى مفارقات التنوير البريطاني في حقيقــة أن البريطانيين صاروا ليبراليين سياسيين في بلدهم، وفــي الوقــت ذاتــه أصــبحوا إمبرياليين في الخارج. وظلّتْ السياسة البريطانية في الهند حبيسة هــذا التنــاقض للأبد".[3] وهذا ما دأبت عليه السرديات الصهيونية من البداية على أيدي كوكبة مــن قادتها المتحمّسين وآزرهم في ذلك المفكّــرون والأكــاديميون الإســرائيليون فــي الحاضر، وهم في كل مناسبة أو بدون مناسبة يقدّمون إســرائيل كنمــوذج حتمــيٍّ وناجعٍ ووحيد لتاريخ الأفكار الأوروبي خارج أوروبا.

ويمكن دحض هذه الادّعاءات سواء الغربية منها أم الصهيونية بشــأن الطــابع الغربي للحداثة، واعتبارها جميع التواريخ غير الغربية مجرد تنويعــات بســيطة، ومشوَّهَة غالبا عن تاريخ الغرب.

وهذا ما دافع عنه بشراسة المؤرخ البريطاني تيموثي ميتشل، بل ذهب أبعد من ذلك بكثير بقوله أن الحداثة الرأسمالية الأوروبية لم تنبثق من الداخل، وإنّما هي من إفرازات الهوامش والأطراف في تفاعلها ومبادلاتها مع أوروبا. " فلو كانت أصول الحداثة تكمن في امتداد علاقات التبادل والانتاج حول العــالم، ألا يجــب عندئــذ

اعتبارها **نتاجا ليس للغرب، وإنّما لتفاعلٍ بين الغرب واللاغرب؟** ويمكن لمواقع هذا التفاعل أن تكمن في جزر الهند الشرقية أو الدولة العثمانية أو الكاريبي كمُونِها في إنجلترا أو هولندة أو فرنسا ".[4] إنَّ الأساليب الحديثة للتنظيم الصناعي، والتعليم المدرسي الرقابي، وأشكال التنظيم والانضباط وأدوات الدولة الحديثة التي يقترحها فوكو باعتبارها شروطا أساسية لصوغ الحداثة الأوروبية؛ كل هذه الأشكال كانت شائعة حسب ميتشل في الكاريبي والبنغال ومصر ومناطق أخرى من العالم قبل أن تنتقل إلى أوروبا.

هل من المشروع أن تستمر السردية الصهيونية في تبنّي الأفكار التنويرية الغربية، والسماح لنفسها بلعب دور الوصيّ الشرعي لإخراج المجتمع الفلسطيني من ظلمات القرون الوسطى إلى أنوار الحضارة الحديثة؟ هذا بالضبط ما سنختبره لاحقا.

***اليهودي المضطَّهَد ومشروعية العودة للوطن:** تشكّل رواية "قصة عن الحب والظلام" التي ظهرت لأول مرة باللغة العِبْرية سنة 2002 سيرةً عائليةً؛ فأحداثها تدور حول حياة الكاتب نفسه، وحياة عائلته، وتتعمّق في التفاصيل المفرطة لأفراد عائلته وأقربائه وأصدقاء العائلة ولا تتوقف عن هذا الحدّ بل تغوص في تفاصيل دقيقة وبعيدة جدا لكل معارفه ومعارف أقاربه الذين يعيشون في محيطه المقدسي. لكن البؤرة الرئيسية لحيوات ومصائر شخصيات هذه الرواية المتمحورة حول حياة عاموس كلاوْزْنر والذي غيّره فيما بعد إلى عاموس عوز –ليبدو أكثر عبرانية وعمقا في التاريخ–هو عملية الاسترجاع المشهدي للحياة التي عاشها يهود الشتات في أوروبا وروسيا والولايات المتحدة الأمريكية منذ نهاية القرن التاسع عشر وخلال النصف الأول من القرن العشرين.

يركّز على عوز تصوير معاناة اليهود في أوروبا الشرقية وروسيا، وما يتعرّضون له من عنفٍ ماديٍّ ومعنويّ واعتداءٍ على الممتلكات والأموال؛ فاليهودي

شخصٌ مكروهٌ ومشكوكٌ في ولائه للدولة التي تحتضنه بما أنّه يصرّ علـــى تفــرّده وانعزاله التام والغيتوهات والأحياء اليهودية. فالتفكير اليهودي قائم على نقاء العرق اليهودي وعبقريته وهو نفسه ما جلب له العداء والحقد والكراهية.

يروي عوز قصة انتقال عائلته من أوروبا غير المحبّة لليهــود إلــى وطــنهم التاريخي الموعود على أنّها هروبٌ من ممارسات البطش والإرهاب الذي يتجرّعه اليهود خاصة منذ صعود الحزب النازي إلى السلطة في ألمانيا، وتنامي المشـــاعر اللا سامية في جميع أنحاء أوروبا.

ففي سنة 1933 يقرّر جدّه أَلِكْسَنْدِر كْلاوْزنِرْ وجدّته شـــلوميت رفقـــة ابنهمـــا الصغير "يهودا آريه" وهو والد عاموس تَرْك أوروبا العنصرية واللا ســـامية دون رجعة والالتحاق بالوطن القومي لليهود في فلسطين (بتعبير عوز الحرفـــي) خوفـــا على عرقهم المهدّد بالانقراض، قاطعين العهد مع شتاتٍ يهوديٍّ طال أمــده لألفـــي سنة أو أكثر. وبمجرد وصولهم إلى ميناء حيفا تتعرّض العائلة اليهودية الفارّة مـــع عائلات يهودية أخرى للإهانة والتعنيف من طرف الطبيـــب الـــذي عيّنتْـــه الإدارة البريطانية، كي يفحص جميع الوافدين ويرشّهم بمحلـــولٍ كـــإجراء وقـــائي مـــن الأمراض المعدية المنتقلة مع اليهود.

عندما يصل دوْر الجد ألكسندر تثور ثائرته ويتملّكه غضبٌ شديدٌ، فيخطـــف أداة الرَّش من الطبيب وبرشّه بها مرتيْن ويعتبر تصرّفه الرد المناسب على إهانـــة أيَّ يهودي يؤمن بفكرة الوطن، ويصرخ فيه:" هكذا يجب أن يُفعل بالشـــخص الـــذي يجرُؤُ على أن يتصرّف هنا في الوطن وكأنّنا مازلنا في الشتات. طوال ألفي ســـنة تحمّلنا كل شيء بصمتٍ. ألفي سنة كنّا كالغنم تُقاد إلى المسلخ. ولكن هنا في بلادنا، فإنّنا لا نسمح بأيِّ شكل من الأشكال أن يكون لنا شتاتٌ جديد. شرفنا لن يدوسَه أحدٌ بعد الآن".[5]

يتبّى عاموس عوز الأفكار الصهيونية القومية بشأن الوطن بحرفيتها، وتغـدو سرديته مجرّد أداة تخييلية مخاتلة تعبّر عن لسان حال الصهاينة وإيمانهم المبالغ فيه عن الوطن كحلٍّ لمشكلة الشتات اليهودي، غير مراعين في ذلك من يملـك الأرض ومن يقرّر مصيرها. وهذا ما دفع بكثير من المفكّرين وأصحاب الضـمائر الحيّـة للقول ببطلان فكرة الوطن، ومهاجمة الأفكار الصهيونية التأسيسيّة. وهنـا يوافـق إدوارد سعيد أستاذه تيودور أدورنو قائلا: " يقول أدورنو إن فكرة الوطن بَطُلتْ في القرن العشرين. ربّما ينطلق جزءٌ من نقدي للصهيونية من أنّها تعير أهميّة أكبـر من اللازم لفكرة الوطن. القول أنّنا في حاجة إلى وطنٍ. وسنفعل أيَّ شيء كان كي نحصل على وطن، وإن كان ذلك يعني تشريد الآخرين".[6]

أمّا العم دافيد، وهو الابن البكر المثقف فقد فضّل البقاء في أوروبا وآمَنَ بفكـرة الاندماج في المجتمع البولندي والعيش بسلام مع أنداده من الأوروبيين على أساس المشاركة والنِّدّية والاحترام المتبادل. لكن مشاعر الحقد والكراهية غيـر المبـرّرة اتّجاه جميع اليهود بدون استثناء في أوروبا جعلتْه يدفع الثمن غاليا، ويقدّم ابنـه ذي الثلاث سنوات قرباناً لكل من اعتقد حقيقةً أو توهّماً بأنّه مازالـتْ هنـاك فرصـةٌ للعيش مع الأوروبيين بسلام.

يلحُّ عاموس عوز على تفسير مَقْتل الطفل دانيِئل كلاوزنر (ابـن عمّـه) بأنّـه انتصار لما أصبح يُطلق عليه **"كراهية اليهود"**، أو حماية أوروبا منه ومن جميـع اليهود كما يقول عوز. وهو ما يدفعه للاستشهاد بإحدى المراسلات بين هتلر وأحد معاونيه. ويتعلّق الأمر بما كتبه هيرمن راوشينغ بشأن الاحترازات والاستراتيجية الدفاعية التي ينبغي أن تحول مسبقا بين كل يهودي، وبين " كابوس إغواء مئـات وآلاف الفتيات بيد أولاد العاهرة اليهود، المنفّـرين عـوج الـرجليْن... بسـرورٍ شيطاني على وجهه يكْمِنُ الشاب اليهودي أسود الشعر للفتـاة... والتـي يدنّسـها بدمه... الهدف النهائي لليهود هو مصادرة القومية... عن طريق "تهجين" الشعوب

الأخرى، والحطّ من المستوى العرقي للشعوب العريقة جدا... بهدفٍ خفيٍّ... لهدم الجنس الأبيض... إذا نقل خمسة آلاف يهودي إلى السويد، فإنّهم خلال فترة قصيرة سيحتلّون جميع المراكز الرئيسية... المُسَمِّم العالمي لجميع الأجناس البشرية هو اليهودية العالمية..."[7]

يتّخذ عوز القصّة المأساوية التي جرت لعمّه ولكثير من العائلات اليهودية كإطار عام ليقدّم للقارئ حجّة دامغة ولا تقبل التأويل بغْيةَ نسف الأسطورة المتفائلة بإمكانية اندماج اليهودي في المجتمعات الأوروبية، وقابلية العيش المشترك والاعتراف بأفضالهم على الاقتصاد والسياسة والفكر والآداب العالمية وغيرها.

إن العم الليبرالي الذي يرفض الرضوخ أمام الهجمات البربرية الشرسة، ويتولّى الدفاع بأُفُقِه الواسع، وخيالِه المحدود عن قضيّته العادلة في أكبر معاقل التنوير الأوروبي. يقول عوز عن عمّه: " اعتبر العمّ دافيد نفسه كمحليٍّ في عصره: إنساناً أوروبيّاً نموذجيّاً، متعدّد الثقافات، متعدّد اللغات، ذَرِبَ اللسان، موهوبا، متنوّرا إنساناً عصريا بكل تأكيد. احتقر الآراء المسبقة للكراهية العرقية الظلامية، وهو لا ينوي، بأيّ شكل من الأشكال أن يستسلم لكلّ أولئك العنصريين منخفضيّ الجبين المحرّضين الشوفينيين، الديماغوجيين، واللا ساميّين الظلاميّين، الغارقين في معتقدات السخافة الذين وعد صوتهم الأجشّ "الموت لليهود" ونبح عليه من على الجدران، " أيّها اليهودي الحقير: اذهب إلى فلسطين!"[8]

إن خلاص اليهود حسب الرواية الصهيونية يقوم على الاستجابة للوعد الإلهي يتأسّس على تاريخ طويل من التحدّي والنبذ، وعليه لا نستغرب أن تتحوّل أصوات يهودية مثقفة ومهمة في إسرائيل من قوّة يسارية نخبوية تزعزع الأفكار والقناعات إلى مجرّد حَمَلَة دروعٍ في الضواحي ودُمى رجعية بأيدي رجال السياسة وصنّاع القرار. وما عاموس عوز إلا الشجرة التي تُخفي من ورائها الغابة. والمفارقة الحقيقية هي أن هذه العصبة رغم التناقض الجليّ في مبادئها، والتعارض الشديد في

مواقفها تحاول جاهدةً التصالح الوهمي مع فكرة إسرائيل الأسطورية وإسرائيل التاريخية. أما كل ما تعلّق بالهويّة الفلسطينية أو الشعب الفلسطيني فما هو إلّا دعاية عربيّة ابتدعها العرب لمضايقة جيرانهم.

***شرَك اللغة الكولونيالية وأزمة الوعي الشَّقيّ:** في كثير من المقاطع الشاحبة من "قصة الحب والظلام" تخون عوز لغته الكولونيالية عن الاعتراف بوجود الآخر الفلسطيني، وحقّه العيش في سلام، بل لا يجد حرجاً في نفي الحقيقة التاريخية، مُتمَتْرِساً بلغة أسلافه الإمبرياليين ودُعاة الحضارة على أن العرب في فلسطين مجرد أقلية من سكان البدو، ووجودَهم أو عدمَه لا يشكّل أيَّة عقبةٍ أمام الطموحات الصهيونية في بناء الدولة. وهذه الدولة -كما يدّعي الصهاينة- سترحب بمحبّي السلام من العرب، وتضمن اختلافهم واندماجهم بسهولة مع أبناء عمومتهم.

في إحدى المراسلات المثيرة بين عاموس عوز و"**جدعون سبيرو**"، يوجّه له هذا الأخير نداءً (رفقة مجموعة من الأدباء ورجال الفكر الإسرائيليين) للتضامن مع قضيّة الأسر والتعذيب غير الأخلاقييْن للطفل الفلسطيني محمد أبو وردة صاحب الاثنتي عشرة ربيعا، لكن عوز يستنكر هذا التصرّف ويرد بغضبٍ غير مبرّر على سبيرو؛ يتَّهِم فيها الفلسطينيين بالإرهاب والتخريب والعنف، ومتجاهلا الممارسات الوحشية للجنود الإسرائيليين اتّجاه المواطنين العزّل والقاصرين عن المواجهة.

هذا التنطّع والتنكّر وعدم الاعتراف بجرائم الاحتلال جعله يسقط في "شرك اللغة الكولونيالية" حسب وصف سبيرو؛ أي اللجوء إلى المصطلحات المخاتلة والتنميق اللغوي لإخفاء بشاعة الجرائم المرتكبة في حق الفلسطينيين. كما أن احتدام النقاش بينهما جعل سبيرو يكتب رسالة بعنوان: **لم تتصرّف مثل إميل زولا!** في إشارة صريحة إلى قضيّة اتّهام الضابط اليهودي "ألفريد درايفوس" بالخيانة العظمى لبلده

فرنسا من أجل عدوّتها ألمانيا، وتبرئته لاحقا بعد مراجعة قضيّته تحت تأثير الدفاع المشهور والمستميت للكاتب إميل زولا.

يقول سبيرو: " اعتقدت بأنك تنتمي إلى فئة ما يسمى بـ"رجال الفكر" أو "المثقفين" وبأنك كاتبٌ وأديبٌ عبري يهودي ذو إحساس أخلاقي مرهف، اشتراكي وعضو كيبوتس مؤتمن على قيم إنسانية، ولذلك فإنه لن يهدأ لك بالٌ إلاَّ إذا جرى تحقيقٌ وافٍ وجادٍ في القضية التي أُطْلِعْتَ عليها". لكن عوز يفضّل اللجوء إلى اللغة المخاتلة والخلط بين ما هو عادل وما هو غير عادل، ولا يجد غضاضة في تجميل الإرهاب الصهيوني بل يلصقه بالآخر/ الفلسطيني الرافض المدافع عن كرامته. يقول عوز في ردّه:

"كمعارض لاستمرار الاحتلال الإسرائيلي في المناطق المأهولة، فإنني أرفض التبرير، الذي تشف عنه الفقرة قبل الأخيرة، للإرهاب العربي الذي تسميه "مقاومة فلسطينية". وهذه "المقاومة الفلسطينية" لم تنشغل قطّ بضرب الأطفال (يقصد الأطفال اليهود) ، وإنما ركّزتْ وعملتْ على قتلهم من دون تمييز، حتى قبل وجود الاحتلال وما إلى ذلك".[9]

لعلّ ازدواجية عوز واحساسه المرهف ككاتب ومثقّفٍ ينتمي إلى دولة غير محبوبة عالميا هو ما جعله يعيش حالة شيزوفرينية خطيرة من تأنيب الضمير الأخلاقي وهو ما يطلق عليه المفكر المغربي "عبد الكبير الخطيبي" اسم **الوعي الشقي** La Conscience Malheureuse حينما ينتقد بشدّة المواقف الغامضة والمتناقضة لكبار المثقّفين الغربيين إزّاء القضية الفلسطينية. وهو ما دفع بالخطيبي لوصف جون بول سارتر بالجبان والمتناقض في فصل كامل من كتابه تحت عنوان: **" دموع سارتر"**

يستخدم **الخطيبي** هذا المفهوم لتعريف الصهيونية بشكل موجزٍ على أنّها: " عودةٌ تهكّميّةٌ للوعي الشقي، كما يحدّده ج. فال في حديثه عن هيغل هو قبل كل

شيء، "وعي بالازدواجية والتناقض".[10] إن تناقض عوز ووعيه الشقي هو التعبير الجليّ عن التناقض بين مشاعره القومية والتزاماته الأخلاقية، ولكنه في الأخير يستسلم للأفكار الصهيونية وطغيان مشاعره القوميّة على غرار المواقف المخزية للكاتب الفرنسي المولود بالجزائر "ألبير كامو" A. Camus اتّجاه القضية الجزائرية والحق في تقرير المصير.

كما يرى عوز في قيام دولة إسرائيل نهايةً للشقاء اليهودي، ولكن هذا الشقاء المتولِّدُ عن ثنائية شعب معذّبٍ/ شعبٍ مختار لا تصمد أمام تجربة الآخر، المتمسّك بوجوده على أرضٍ يطلبها الصهاينة لإدراك مرتبة **شعب الله المختار**. " فهذا الشعب الذي أراد لنفسه أن يكون فوق التاريخ لا يمكنه أن يخترق الغياب المزدوج (غياب الذكرى والأمل) إلّا عن طريق قلبٍ ساخرٍ للوعي الشقي: حيث ينقلب منفى الشعب اليهودي إلى منفى الآخر، ويصبح امتلاك الأرض اختلاساً للآخر، ويكون تأسيس الدولة قضاء على شعب".[11]

غالبا ما يترافق الادّعاء الصهيوني بوجود أقلّية فلسطينية في الوطن حماسٌ شديد لتملّك الأرض العذراء، وتحويل الصحراء إلى جنّة مزهرة في انتظار قدوم الربيع. يحجّم عوز التيار المنادي بأرض إسرائيل القائم على فرضيّة "نظرية الفراغ" عندما يبالغ في تصوير الحماس والانفعال (على لسان خالته سونْيا) الذي يتلقّاه أطفال اليهود من التعليم الصهيوني في مدرسة **"ترْبوتْ"**، وهو انفعالٌ لا يختلف كثيرا عن انفعال الفلسطينيين اليوم، ولكنه حسب عوز حماسٌ بدون العنف والدموية الموجودين عند الفلسطينيين. يقول عوز على لسان الخالة سونْيا:

" لقد عرفنا بالطبع مدى الصعوبة في البلاد: عرفنا أن الحرّ شديد جدّاً، صحراء مستنقعات، بطالة، وعرفنا أيضا بوجود عرب فقراء في القرى، لكن على الخريطة الكبيرة التي كانت معلّقة في الصّف رأينا بأن العرب غير كثيرين... وكنّا متأكدين تماما بأنّه يوجد مكان كافٍ لعدّة ملايين من اليهود، وبأنّ العرب ربّما أنّهم

محرّضون ضدّنا مثل الشعب البسيط في بولندا، ولكن من الممكن أن نشرح لهم وأن نقنعهم بأن وجودنا لن يسبّب لهم إلّا الخير والنعمة والاقتصادية والطبيّة والثقافية وغيرها وغيرها."[12]

إن قصة عن الحب والظلام من أكثر النصوص الأدبية تمثيلا للسردية الصهيونية في مطلع الألفية الثالثة فالأدب يتحوّل عند عوز من مطلبٍ جماليٍّ ومُعبِّر عن هموم الإنسان وصراعه مع الطبيعة، ومحيطه، إلى وسيلة لإخضاع الآخر، ونبذه ومحاولة محو كينونته. كما أن السرد يغدو أكثر الوسائل فتْكاً وتحكّماً في الشعوب المقهورة وقمع الأصوات المهمّشة، والسعي لإزاحة الروايات المتعارضة مع جميع الروايات الصهيونية بشأن الصراع الفلسطيني الإسرائيلي على الأرض والتاريخ والذاكرة.

كما أن روايات وسرديات عاموس عوز تصبُّ في مجملها في إعادة إنتاج المقولات الاستشراقية بإنكار وتشويه التاريخ الأصلي للفلسطينيين، والسيْر في الخط الرسمي للرواية الصهيونية التي تبرّر بجميع الوسائل أحقية يهود الشتات المضطَّهدِين في إقامة دولة قومية لهم. ولهذا لا يفتأ عوز من تبنّي لغة عبرية كولونيالية تخترقها بعض اللمحات التي تعبّر عن أزمة الضمير الشقي الذي يعيشه اليهودي الحالي.

***المصادر والمراجع:**

1- عاموس عوز؛ قصة عن الحب والظلام، تر: جميل غنايم، منشورات الجمل، بغداد، ط01، 2010.

2- إدوارد سعيد؛ الأنسنيّة والنقد الديمقراطي، تر: فواز طرابلسي، دار الآداب بيروت ط01، 2005.

3- // //؛ السلطة والسياسة والثقافة، تر: نائلة قلقيلي حجازي، دار الآداب بيروت ط01، 2008.

4- إيلان بابيه؛ فكرة إسرائيل، تر: محمد زيدان، المؤسسة العربية للدراسات والنشر/بيروت مكتبة كل شيء/ حيفا ط01، 2015.

5- ديبيش شاكرابرتي؛ مواطن الحداثة، مقالات في صحوة التابع، تر: مجيب الرحمن دار كلمة للنشر، أبو ظبي ط01، 2011.

6- عبد الكبير الخطيبي؛ النقد المزدوج، تر: أدونيس وآخرون، منشورات الجمل، بغداد ط 01، 2009.

7- أنطوان شلحت: عاموس عوز.. شرك اللغة الكولونيالية، مقال في **ضفة ثالثة**، على الرابط التالي:

www.alaraby.co.uk/diffah/revisions/2017/10/10

الهوامش:

[1]– إدوارد سعيد؛ الأنسنيّة والنقد الديمقراطي، ترجمة، فوّاز طرابلسي، دار الآداب، بيروت ط01، 2005، ص 159.

[2]– إيلان بابيه؛ فكرة إسرائيل، تاريخ المعرفة والسلطة، تر: محمد زيدان، المؤسسة العربية للدراسات والنشر/بيروت، مكتبة كل شيء/ حيفا، ط01، 2015، ص 17.

[3]– ديبيش شاكرابرتي؛ مواطن الحداثة، مقالات في صحوة التابع، تر: مجيب الرحمن، دار كلمة للنشر، أبو ظبي، ط01 2011، ص186.

[4]– تيموثي ميتشل؛ مدرسة دراسات التابع ومسألة الحداثة، من كتاب؛ دراستان حول التراث والحداثة، تر: بشير السباعي الهيئة الصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط01، 2015، ص66.

[5]– عاموس عوز؛ قصة عن الحب والظلام، تر: جميل غنايم، منشورات الجمل، بغداد، ط01 2010، صص 166–167.

[6]– إدوارد سعيد؛ السلطة والسياسة والثقافة، تر: نائلة قلقيلي حجازي، دار الآداب، بيروت ط01، 2008، ص 495.

[7]– عاموس عوز؛ قصة عن الحب والظلام، ص 167.

[8]– عوز؛ نفسه، ص 168.

[9]– أورد أنطوان شلحت في مقال بعنوان: عاموس عوز. شرك اللغة الكولونيالية، في الموقع الإلكتروني **ضفة ثالثة** على الرابط التالي:
www.alaraby.co.uk/diffah/revisions/2017/10/10

[10]– عبد الكبير الخطيبي؛ النقد المزدوج، تر: أدونيس وآخرون، منشورات الجمل، بغداد، ط 01، 2009، ص 50.

[11]– الخطيبي؛ المرجع نفسه، ص 52.

[12]– عوز؛ قصة عن الحب والظلام، ص 287.